

خرواظر في كتاب الله :

ضريبة الانسانية

الأستاذ محمد عبد الله السمان

إن للانسانية ضريبة على كل فرد ، ولا يكاد يوجد فرد واحد يمجز عن تأديتها ؛ اللهم إلا من ملأت الأناية نفسه ، واستوت الأثرة على قلبه ، وهذا حري بأن يحذف من المجتمع ، وتلفظه الانسانية لغظة مهينة لا كرامة فيها .

والقرآن الكريم حين يشر المرء بهذه الضريبة ، وأنها واجب تحبته المرء ، إنما يهدف إلى فرضين جليين ساميين : أما الأول ، فإثبات وجوده ، وإظهار كيانه ، وطبعه بطابع الخير والبر والتعاون ، وتجنيدته في خدمة الانسانية ، وإعداد نفسه للمعروف كلما ناداه الواجب واستصرخته المرء . وأما الثاني ، فدفع المرء إلى استغلال أوقات الفراغ فيما يفيد المجتمع ويسمه ، وإتفادها في تدعيم أسس الخير التي يقوم عليها بناء كل أمة تبني العزة في حياتها . . .

وأولى أنواع هذه الضريبة بالإشادة هو فعل الخير ، لأن الانسانية في كل زمان ومكان متمطشة إلى الخير الذي يشد أزرها ويؤيدها . في نضالها وكفاحها ، ويضيق على رسالتها في الحياة إشراقاً يزيد رفعة وسموا ، ويكمل مسماها بالنجاح . . .

« ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات . . . ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . . . » فن تطوع خيراً فهو خير له . . . ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم . . . ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير - بإيها الذين آمنوا اركموا واسجدوا واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون - وما تفلحوا من خير فإن الله به عليم »

والإحسان نوع من ضريبة الانسانية جدير بكل تقدير ،

لأن فيه تدعياً للإخاء الإنساني ، وبه تتقارب القلوب وتتآلف ، وتترابط النفوس وتتصافى ، والإحسان إما خير يفعله الإنسان بدافع من شعوره الإنساني ، وإحساسه الأخوي ، وإما عفو عن شرور الأشرار ، ومقابلة إساءة المسيئين بالإحسان ، وصبر على أذى المتعتين من الظلمة والظفافة :

« بل من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . وقولوا للناس حسناً - للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة - ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن - الذين يتفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والماضين عن الناس ، والله يحب المحسنين - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة - والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الجار »

والبر من أنواع الضريبة الانسانية التي لها قدرها ولا غرو . فهو جوامع أنواع الخير ، وفيه تتجلى آيات الرحمة والإخاء والوظ . ولا يكون المرء المعترف بضريبة الانسانية مؤدياً لها إلا إذا جند نفسه لبر جهد المستطاع . وليس بمجيب بمد هذا أن ترى كتاب الله تعالى يدفع المسلمين إلى التعاون على البر ، ليمشوا في ظلال الأخوة الصادقة . وقد أشار القرآن الكريم إلى البر وإلى أن سبله جميعها تلتق عند هدف واحد هو الخير ، وخلاصة هذه السبل إيمان كامل ، ومعروف دائم ، وطاعة خالصة ، ووقاه بالمهود ، وصبر على السكاره :

« وتعاونوا على البر والتقوى . . . » ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذرى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والوفون بمهدم إنفاهاهدوا ، والصايرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم الصابرون »

والمرء حين يؤمن بأن هناك نما عظمى أسبغها عليه الخالق

نجازى إلا الكفور؟ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياما آمنين، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم، فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق.. إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»

وهناك إنسان يعيش في حياته كما تمشي الأنعام، يأكل ويشرب ويتمتع وكفى، ولا يشعر بوجوده كعضو في المجتمع يجب أن يؤدي نحوه واجبا، ويجهل أن للإنسانية ضريبة على كل فرد منتصب إليها، وهذه الضريبة لا يسجز عنها غنى أو فقير، فالغنى يستطيع أن يبذل من ماله في سبيل الخير، والفقير يستطيع أن يبذل شيئا من وقته، فيبحث الأضياف على المتصدق؛ ويدفع بهم إلى طريق البر، ويأمر بالمعروف ما وسعه الجهد، ويصل إن استطاع في كل لحظة للإصلاح بين الناس. وقد سد القرآن الكريم أبواب الأعداء أمام العاجز عن أن يؤدي الضريبة من ماله، وفتح له طرقا من الخير يستطيع أن يسلكها دون احتياج إلى شيء من المال، واعتبر المتقاعد عن سلوك هذه الطرق محذوقا من المجتمع، ومن المهملين الذين لا خير في وجودهم، ولا فائدة من حياتهم:

«لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما».

محمد عبد الله السامح

جل وعلا، يجب عليه أن يؤدي شكر هذه النعم العظمى له، وليس هناك أعظم شكرا لله من أن تدفع ضريبةك الإنسانية في حياتك. واقد ندد القرآن بالإنسان المارق، المنتقم في نعم الله، وهو في نفس الوقت مصر على الكفران بها، وعدم الاعتراف بما تفرضه الإنسانية عليه من ضريبة، فلم يحطم العقبة، ليفك رقبة ويحررها ويطمم اليتيم والمسكين في يوم ذي مسغبة، ويكون من الذين يتواصون بالرحمة...

«لقد خلقنا الإنسان في كبد - أيجب أن لن يقدر عليه أحد؟ يقول أهلك ما لا لبدا، أيجب أن لم يره أحد؟ ألم نجعل له عيين، ولسانا وشفهتين، وهدينا النجدين، فلا انتعم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيها ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالرحمة، أولئك أصحاب اليتيم، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشمة، عليهم نار مؤسدة»

ولقد قص علينا القرآن الكريم قصة سبأ، أولئك الذين غمهم الله بنمسه فاشكروه، ووهب لهم حياة طيبة فتهربوا من ضريبة الإنسانية، وكان جزاؤهم، أن سلهم الله النعم، وأبدلهم بحياتهم الطيبة حياة نمسة، وجعلهم عبرة وعظة للأجيال من بعدهم:

«لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان من بين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشى من سدر قليل، ذلك جزيناكم بما كفرتم، وهل

للمؤلفين وناشرى الكتب القديمة

شركة مطبعة مصر فى خدمتكم

تؤدى التسيلات المجزية فى إخراج كتبكم. اتصلوا بها

تجدوا أجل طبع وأحسن اتفاقات